المورد

عدد خاص
أبو الطيب المتنبي

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الاعلام - الجمهورية العراقية - المجلد السادس - العدد الثالث ١٣٩٧ - ١٩٧٧

حول نسب المتنبي

بقلم
عبد المنعم محمد جاسم
ذي قار ـ الجمهورية العراقية

لا اريد في هذا البحث ان اكتب في فن الشاعر العظيم ابي الطيب المتنبي ، هذا الذي ملأ به الدنيا وشغل الناس فشرّق فيه الباحثون وغرّبوا ، كلٌ يوجهه الوجهة التي يراها حتى انتفخت بطون الكتب وامّات المصادر بشرح غريبه وتفسير غامضه وتأويل شاذه فكانت الشروح والدراسات قد اربت على الخمسين(١) ، بله المقالات والبحوث المتعددة التي نشرها باحثون عرب من عراقيين وغير عراقيين في مجلات وكتب ضربت شهرتها الآفاق(٢) ، فكان ابو الطيب وافر الحظ في هذا الجانب .

اما الجانب الذي لم يتفق فيه الباحثون والادباء والنقاد فهو نسب المتنبي واسرته ، فظلوا يتخبطون بين اوجهٍ وحضيضه . ولعلّ الذي كان مدعاة هذا الاختلاف والتنافر في الراي هو عدم تصريح المتنبي نفسه عن هذا النسب ، مما حدا بكتابنا ونقادنا المعاصرين ان يبرز كل منهم رأيه مدعوما بالدليل مقرونا بالتعليل . ولا بأس ان نستعرض آراء هؤلاء الادباء فنسلط الاضواء اكثر على هذا الجانب المظلم المعتم من حياة شاعر عظيم كالمتنبي .

لقد قال المؤرخون عن المتنبي « انه ولد بالكوفة في كندة سنة ثلاث وثلاثمائة »(٣) « وكان ابوه يعرف بعَبْدان السقّاء » . ان هذه الدعوى وهي كونه ابن سقاء تهمة الصقها بأبيه حساده وطاعنوه كما يقول السيد عبدالغني الملاح(٤) ، ومن هؤلاء الحساد ابن لنكك البصري وكان للمتنبي هاجيا وعليه حاقدا فشمت به وقال(٥) :ـ

قولا لأهل زمان لا خلاق لهم
ضلوا عن الرشد من جهل بهم وعموا
اعطيتم المتنبي فوق منيتهِ
فزوجوه برغمٍ امهاتكم

لكن بغداد جاد الغيث ساكنها
نعالهم في قفا السقّاء تزدحم

وقال فيه ايضا(٦) :ـ

متنبيكم ابن سقاء كوفان ويوحي من الكنيف اليهِ

كما أن بعض شعراء الوزير المهلبي ادعوا انه هو نفسه كان السقّاء الذي يسقي الماء بالكوفة(٧) : اي فضل لشاعر يطلب الفضل من الناس بكرة وعشيا عاش حينا يبيع بالكوفة الماء وحينا يبيع ماء المحيا

ويرى الملاح ان ابا المتنبي كان دقيق الأطراف فلقبه الناس بلقب عيدان السقاء (بالكسر) فمن السهل على المتآمر ان يصحف (عيدان) فيجعلها (عَبْدان) ويصحف السقاء (بكسر السين) فيجعلها (السقّاء) بفتح السين وتشديد القاف .

وقد راى عمر فرّوخ (٨) شرح كلمة عيدان السقاء في قاموس المحيط للفيروز آبادي وكيف كانت لقبا لوالد احمد ابي الطيب المتنبي وليست اسما له .

يتبين لنا ان من قال في المتنبي ان اباه عَبْدان السقّاء قد وقع في وهم جاء من لقب غلب على ابيه واشتهر به وهو (عيدان السقاء) بكسر العين والسين كما ذكر ذلك الفيروز آبادي في القاموس المحيط ، والزبيدي في تاج العروس ، وان والد المتنبي كان طويل الاطراف دقيقها ولذلك شبه بالعيدان أو العصي التي تنصب ليقام عليها السقاء .

ومثلما اختُلِف في اسم ابيه اختلف كذلك في بيته واسرته فطه حسين(٩) يرى في دخول المتنبي ودراسته في كتّاب اشراف العلويين انه لا يدل على امتياز ولا على استثناء وانما يدل على الاتجاه الديني الذي وجه اليه الصبي ويدل على ان الذين

كانوا يكفلون هذا الصبي ويقومون على تربيته وتنشئته كانوا من الشيعة العلويين . فان الاستقراطيين من الشيعة العلوية ومن اهل السنة لم يكونوا يدخلون ابناءهم في طور الصبا الى المدارس العامة وانما كانوا يتخذون لهم الاساتذة والمؤدبين فاذا شبوا خلوا بينهم وبين الاختلاف الى مجالس العلم في الاندية والمساجد الجامعة . انما كان اوساط الناس وعامتهم هم الذين يرسلون ابناءهم الى هذه المكاتب والمدارس .

كما يرى الدكتور طه حسين ان شعور المتنبي الصبي بهذه الضعة او بهذا الضعف من ناحية اسرته واهله الادنين قد كان العنصر الاول الذي اثر في شخصية المتنبي وبغض اليه الناس وفرض عليه ان يرى حياته بينهم لم تكن كحياة اترابه ورفاقه وانما كانت حياة يحيط بها كثير من الغموض ويأخذها كثير من الشذوذ ، ويفسر قول المتنبي :ـ

انا ابن من بعضه يفوق ابا البا
حث والنجل بعض من نجلته

بأنه لا ينسب نفسه الى رجل لأنه لا يحفل او لا يريد أن يحفل بالانتساب الى الرجال ، وانما ينتسب الى الآباء والجدود من غلبه المفاخرون وقهره المنافرون وقطعوا عليه السبل وسدوا عليه ابواب الحيلة . فاتخذ الآباء والجدود تعلة ومعذرة يلتمس عندهم ما لا يجد عند نفسه ويستعير من اعمالهم ما لا يجد في اعماله :ـ

وانما يذكر الجدود لهم
من نفروه وانفذوا حيلته

فطه حسين اذاً يرى ان المتنبي وضيع النسب من ناحية اسرته واهله الادنين ، ولكن الذين كفلوه كانوا من الشيعة العلويين .

واديب صعيبي(١٠) هو الآخر الذي يرى بأن المتنبي ذو نسب وضيع ، فهو يقول في باب الوجدانيات (نشأ ابو الطيب في بيت وضيع مغمور، لا يظله فيه مجد موروث ، ولا تكتنفه فيه كرامة تخوله رفع الراس بها تيها ، وقد حلم ـ مع ضعة البيت الذي نشأ فيه وحقارة الوالدين الذين انتمى اليهما ـ بالمجد السامي وما قدر له تجسيد حلمه في واقع) .

انه ـ بلا شك ـ تصريح من صاحب هذا القول بضعة البيت الذي نشأ فيه المتنبي . وهو رأي لا يدعمه دليل ، ولا تقوّمه حجة أو برهان .

ويقول جورج غريب(١١) في نسب المتنبي وسبب كتمانه هذا النسب « أما السبب الصحيح لهذا الكتمان فهو ضعة النسب » وقال ايضا « ذكر امه دون تسميتها في بيت واحد من الشعر » وغريب جدا ان يجعل ذكر امه دون تسميتها مبررا لضعة النسب . فلو رجعنا الى دواوين الشعراء من جاهليين واسلاميين واموين وعباسيين لم نجد فيها ذكرا لاسماء امهات اصحابها الا النادر منهم .

والدكتور عبدالرحمن شعيب(١٢) يؤكد ضعة نسب المتنبي في تعليقه على قوله :ـ

انا ابن من بعضه يفوق ابا البا
حث والنجل بعض من نجلته

فيقول « ولا يخدعنا المتنبي عن هذا الأب بقوله : البيت ... لان شهرة الأبناء لا تدل حتما على شهرة الآباء ، ولا على علو اقدارهم . بل ان ابناء الخاملين كثيرا ما يبزون ابناء السراة النابهين الذين الهاهم ترفهم عن الأخذ بأسباب المجد الجديد . حتى فاقهم من كان ادنى منهم منزلة واقل مالا » .

وانني لأرى من خلال هذا القول ان الدكتور شعيب يحلل ضعة نسب المتنبي تحليلا سيكولوجيا وراثيا ، وهو حقيقة لا مجال للشك فيها فان للطفرات الوراثية اثرها الكبير في تباين السلوك الفردي بين الابن وابيه . أما مدى انطباق هذه الحقيقة العلمية على شاعرنا فلا نستطيع بهذه السهولة ان نقيم عليها الدليل . فالذي يقول :ـ

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي
وبنفسي فخرت لا بجدودي
وبهم فخر كل من نطق الضا
د وعوذ الجاني وغوث الطريد

لا يمكن ان يكون ابوه واجداده خاملين . ولكنه مع كل هذا الفخر فهو لا يريد ان يفخر بهم لما في نفسه من عزة واباء ومجد وسمو بها يعتلي ، وفي مرادها يتعب جسمه ، ولتحقيق غاياتها لم يغمض جفنا ولم يمرغ انفا في تراب ولم يدنس جبهة بسجود ولم تثبت له قدم في ارض . فهو قد صال وجال في انحاء هذه الدنيا العريضة الواسعة فطرق باب سيف الدولة وكافور والانطاكيين والتنوخيين في سبيل ان يحصل على مجد ظن انه لا يشترى الا بكثير المال فلم يطلب مالا لفقر وهو الغني النفس ، انما كانت نفسه متعطشة لسيادة ومجد وولاية فكان المال لها سببا .

وليس ثمة رأي اغرب مما وقعت عليه عيناي في كتاب السيد عبدالغني الملاح(١٣) ، الذي حاول

فيه عبثا أن يثبت أن المتنبي ابن الامام محمد المهدي بن الحسن العسكري .. ابن ... ابن ... ابن الامام علي بن ابي طالب . معتمدا في ذلك على ابيات متبعثرة على صفحات ديوانه يركض وراءها فاذا الماء سراب . فهو يحاول ـ يائسا ـ ان يضع يده على كلمة قالها في (اللاشعور) فكانت محاولته هذه كحاطب في الظلام . فهو يتساءل : لماذا قال المتنبي هذا البيت في تلك المناسبة ؟ وماذا يعني بقوله كذا ؟ وما معنى هذه الكلمة في هذا البيت ؟ ولماذا لم يقل غيرها ؟ مدعما رايه بـ (اعتقد) و (يجوز) و (أتوقع) و (من المحتمل) و (ليس بمستبعد) مما لا يقرها البحث العلمي الذي يتوخى الدقة وينشد الحقيقة التي لا مجال للشك فيها .

فهو يفسر قول المتنبي :ـ

امط عنك تشبيهي بما وكأنه
فما احد فوقي ولا احد مثلي

بأن تشبيهه بـ (ما) و (كأنه) لا يزيده شرفا وهو ابن امام ، ولا احد (فوقه) من جراء هذا النسب ولا احد (مثله) .

كما انه يدعونا الى التأمل في جملة (وينجلي خبري) في بيت المتنبي :ـ

سيصحب النصل مني مثل مضربه
(وينجلي خبري) عن صمة الصمم

كما انه يحاول ان يكشف لنا الدقة في كلمة (الصبر اجمل بي) في قوله :ـ

فالموت اعذر لي (والصبر اجمل بي)
والبر أوسع والدنيا لمن غلبا

فهو يعتقد ان هذه الكلمة هي التي تكاد تفضحه وهو يعلن عن صبره على امر ، لا علاقة له مطلقا بممدوحه .

كما انه فسر الأبيات التي يقول فيها المتنبي :ـ

فؤاد ما تسليه المدام
وعمر مثلما تهب اللئام
ودهر ناسه ناس صغار
وان كانت لهم جثث ضخام

بأنها تحمل اكثر من عتاب واكثر من لوم لأبيه (صاحب الزمان) .

كما انه يرى في قوله :ـ

وقد خفي الزمان به علينا
كسلك الدر يخفيه النظام

بأنه ينم عن وجود (رجل معين) في مخيلة المتنبي (غاب الزمان به) وترك ابنه في محنة النسب .

كما انه يفسر ما قاله المتنبي :ـ

وكيف لا يحسد امرؤ علم
له على كل هامة قدم

بأن انفعالاته بقيت هي المسيطرة على اعماق نفسه ، وهي المتنفس الوحيد لهمومه وخيبة امله في (قضيته) فراح يقول لعلي بن ابراهيم التنوخي هذه القصيدة الميمية التي منها هذا البيت .

وهكذا يمضي السيد عبدالغني الملاح محاولا ان يفسر قول المتنبي هذا بأكثر مما يتحمل من معنى . وشاعرنا بعيد كل البعد عن هذه التأويلات والافتراضات التي نسجها الملاح بأوهى من خيط العنكبوت .

ولقد نسي الملاح ـ او تناسى ـ الفجوة الزمنية الواسعة بين مولد المتنبي عام (٣٠٣ هـ) ومولد الامام محمد المهدي عام (٢٥٥ هـ)(١٤) . فلو افترضنا ـ جدلا ـ أنه كان والدا للمتنبي فانه يكون قد تزوج ـ على اقل تقدير ـ عام (٣٠٢ هـ، لكي ينجب المتنبي عام (٣٠٣ هـ) فيكون عمر الامام محمد المهدي حينئذ سبعا واربعين سنة . اننا نتساءل : لماذا تزوج المهدي وهو في هذه السن المتأخرة ؟! فيجيبنا الملاح : ان متطلبات الحياة من اكل وشرب وجنس هي التي تلح عليه بالزواج . فنقول : لماذا لم يتزوج وهو في سن العشرين ـ مثلا ـ ؟ هذه السن التي يكون فيها احوج الى الزواج من سن السابعة والاربعين ، والامام محمد المهدي قد مر بالظروف نفسها سواء في سن العشرين او في سن السابعة والاربعين . فهو لم يحسر عنه لثام ولم يُرَ له وجه من أجل المحافظة على قضيته الكبرى ، وخوفا من ملاحقته من قبل بني العباس هؤلاء الذين ظلوا ردحا من الزمن يطاردون المهدي وشيعته من العلويين . وان افترضنا ان المهدي قد تزوج ، فمن هي زوجته ؟ ما اسمها ؟ ما نسبها ؟ كيف تزوجها ؟ هل يوجد مصدر تاريخي يذكر لنا صراحة او تلميحا أن المهدي قد تزوج ؟ كل هذه الاسئلة لم نلقَ جوابا لها لدى الملاح في كتابه هذا .

ان شاعرنا يمكن ان يكون علوي النسب ؛ ويمكن ان يكون ابوه من اشراف العلويين الا ان الجزم بأن الامام محمد المهدي والدٌ له لا محل له والمصادر التي ترجمت للامام محمد المهدي كلها

متشابهة لا اختلاف بينها فيما تروي وتدون قديمها وحديثها ، ولم ينص قديم هذه المصادر وحديثها ، بل ولا تشير ـ حتى اشارة خاطفة ـ الى زواج المهدي . فكيف نفتعل قصة زواجه مبنية على افتراض لا أساس له من الصحة ، ولا سبيل له الى العقل ؟!

أما هذه الابيات وغيرها مما يشك الملاح في حقيقتها ، ويقف عندها وقفة طويلة ، فيمكن أن نفسرها بتفسير آخر ذاك انه راى فساد الجند مستشريا في البلاد ، والاعاجم تتسلط عليها ، فلم تطق نفسه ـ وهو العربي الاصيل ـ أن يقف مكتوف اليدين ، معقود اللسان تجاه ظرف سياسي بال ممزق متهريء ، ووضع اجتماعي قد بدأ الانحلال واضحا فيه ، والسقوط باديا عليه ، لا يكرم فيه الناس احدا اكرامهم من يعتقدون انه يملك مائة الف دينار(١٥) ، فثار وصال وجال في انحاء الدنيا ، في بغداد ، في الشام ، في مصر ، في شيراز ، والب الشعب على الحاكمين ، لاسترداد ملك مضيع وعزة مهدورة ، وكرامة مسلوبة . فانت ترى صورة المتنبي بفخرها وسموها وابائها في قصيدة مدح او ابيات هجاء كلما جلت في ديوانه، فقصائده تطفح عليها روح (متبنية) متجهة نحو العلى ، لم تضع قدما على ارض ولم تدع انفا يمرغه تراب . بهذا التفسير نستطيع أن نبين البرج العاجي لنفس المتنبي التي لا يمكنها أن تفسد وتختنق بذلة الضعفاء وانفاس الحاقدين .

ان ابا الطيب صورة ناطقة رسمت في جبين الدهر ، لم يدنس اطارها صدأ القرون ، وليث صامد لم تلوث فمه نتانة الجيف عند الجوع .

الهوامش

١ ـ نذكر من شراح ديوان المتنبي : تلميذه ابن جني ، وابو العلاء المعري في (اللامع العزيزي) و (معجز احمد) والواحدي ، وابو زكريا التبريزي ، وابو الحسن الجرجاني صاحب (الوساطة) ، والعكبري ، وابن فورجة ، والصاحب ابن عباد ، والمغربي صاحب الانتصار ، والحاتمي ، والعميد صاحب الابانة ، وابن الاثير صاحب الاستدراك على ابن الدهان ، وابراهيم اليازجي وبطرس البستاني .

٢ ـ مثل الوساطة للجرجاني ، ويتيمة الدهر للثعالبي، والعمدة لابن رشيق ، ووفيات الاعيان ، والرسالة الحاتمية ، والصبح المنبي للبديعي الدمشقي ، وخزانة الادب للبغدادي ، ومعجم الادباء لياقوت الحموي ، ومن الكتب الحديثة : المتنبي لشفيق جبري ، ذكرى ابي الطيب لعبدالوهاب عزام ، مع المتنبي لطه حسين ، ومن المجلات : المقتطف ، الهلال ، الحديث ، العصبة .

٣ ـ يتيمة الدهر ـ جـ١ ـ ص ٥٢ .
٤ ـ المتنبي يسترد اباه ـ ص ٣٧ .
٥ ـ نفس المصدر ـ ص ٣٨ .
٦ ـ نفس المصدر ونفس الصفحة .
٧ ـ نفس المصدر ونفس الصفحة .
٨ ـ مجلة العلوم اللبنانية ـ عدد مايس ١٩٦٣ من مقال لابراهيم العريض .
٩ ـ مع المتنبي ـ ص ٣٥ .
١٠ ـ المتنبي ـ باب الوجدانيات .
١١ ـ المتنبي دراسة عامة ـ ص١٦ .
١٢ ـ المتنبي بين ناقديه ـ ص ٣٢٠ .
١٣ ـ المتنبي يسترد اباه .
١٤ ـ الغيبة للطوسي ـ ص ١٣٧ .
١٥ ـ تاريخ بغداد ـ جـ٤ ـ ص ١٠٢ .

مصادر البحث

(١) ديوان المتنبي/شرح البرقوقي .
(٢) يتيمة الدهر للثعالبي ـ تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ـ القاهرة ـ ١٩٤٧ .
(٣) المتنبي يسترد اباه ـ عبدالغني الملاح ـ طبعة دار التآخي ـ بغداد ـ ١٩٧٤ ـ الطبعة الاولى .
(٤) مع المتنبي ـ طه حسين ـ طبعة دار المعارف بمصر .
(٥) المتنبي ـ اديب صعيبي .
(٦) المتنبي دراسة عامة ـ جورج غريب .
(٧) المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث ـ محمد عبدالرحمن شعيب .
(٨) الغيبة ـ للطوسي ـ الطبعة الثانية .
(٩) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي .
(١٠) مجلة العلوم اللبنانية ـ عدد مايس (١٩٦٣) .